" الوفاء بالعهد "

ومن الأخلاق القرآنية الكريمة ، الوفاء بالعهد ، فلابد من ضوابط للحياة . حياة المرء مع نفسه ، وحياته مع غيره من الناس ، الأقربين والأبعدين من الأهل والعشيرة ، والجماعة ، والأمة ، والأصدقاء ، والأعداء ، وكل ما يحيط بالإنسان في هذا الكون ، ثم حياته مع ربه- سبحانه وتعالى ، والعلاقة بالله -عزوجل- هي أساس الحياة جميعا ، لذلك يقول الله - عزوجل:-﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ﴾[سورة المائدة: ١]

إن الإسلام يقيم هذه الضوابط في حياة الناس ، ويحددها بوضوح ويربطها كلها بالله- سبحانه وتعالى- حتى لا يكون الأمر فيها للأهواء ، والشهوات المتغيرة ، ولا للمصالح العارضة التي يراها فرد ، أوتراها مجموعة ، أوتراها امة فيحطمون في سبيلها هذه الضوابط التي أقامها الله .سبحانه .هي المصلحة ما دام الله هو الذي أقامها للناس ، فهي في مصلحة الناس جميعا ، ولورآها البعض غير ذلك فمن الواجب على المسلم التسليم والإذعان، والانقياد ، والطاعة ، فلا تقدير للمرء أمام تقدير الله- عزوجل- حيث أن الله- سبحانه – هو العالم بأحوال العباد ، وما يكون في مصلحتهم .

لا تـدبر لـك أمـرا ... فـأولوا التـدبير هلكـا

سـلم الأمـر إلينـا ... نحـن أولـى بـك منـك

هذه الضوابط يسمها الله - عزوجل - " العقود " فقال سبحانه :- " يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ " وهولفظ ينتظم ، ويشمل كل عقد وعهد بين الإنسان وربه ، وبين الإنسان والإنسان .

يقول " ابن عباس "- رضي الله عنهما - " العقود هي العهود وهى ما أحل الله ، وما حرم ، وما فرض في القرآن كله من التكاليف والأحكام .

وهذا القول اختاره" الطبري والزمخشرى"والأرجح هوالعموم، فهوأمر بالوفاء بكل عقد .

وهوأيضا اختيار صاحب " البحر المحيط " وجمع من المفسرين .

قال " بن اسلم " : هي ستة : عهد الله ، وعقد الحلف ، وعقد الشركة ، وعقد البيع وعقد النكاح ، وعقد اليمين ، وهوكذلك في " ابن كثير ".

" أن الله يحكم ما يريد " يعنى يقضى في خلقه بما يشاء لأنه الحكيم في أمره ونهيه

ويقول " ابن كثير" في معنى هذه الآية " هي عهد من محمد رسول الله . - ﷺ - "لعمرو بن حزم " حين بعثه إلى اليمن أمره بتقوى الله في أمره كله ، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون " .

وعن " ابن عباس "- رضي الله عنهما- قال : يعنى العقود يعنى العهود وهى ما احل الله ، وما حرم ، وما فرض ، وما حَدَّ في القرآن كله ، ولا تغدروا ، ولا تنكثوا ، ثم شدد في ذلك فقال تعالى:" ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [سورة البقرة:٢٧].

وهذه آيه تدل على لزوم العقد وثبوته ، فيقتضى نفى خيار المجلس ، وهذا مذهب "أبى حنيفة ومالك " وخالفهم في ذلك " الشافعي ، وأحمد ، والجمهور" والحجة في ذلك ما ثبت في الصحيحين عن " ابن عمر . رضي الله عنهما . قال ، قال رسول الله- ﷺ- "البياعان بالخيار ما لم يتفرقا " وفى لفظ آخر" للبخاري " " إذا تبايع الرجلان فكل واحد منهما بالخيار ما لم يتفرقا " وهذا صريح في إثبات خيار المجلس المتعقب لعقد البيع ، وليس هذا منافياً للزوم العقد ، بل هو من مقتضياته شرعاً ، فالتزامه من تمام الوفاء بالعقود ، فإذا أبرم المسلم عقداً فيجب عليه أن يحترمه ، وإذا أعطى عهدا فيجب أن يلتزمه، ومن الإيمان أن يكون المرء عند كلمته التي قالها ينتهي إليها كما ينتهي الماء عند شطآنه فيعرف بين الناس بالوفاء بالعقود ، والالتزام بالعهود ، فالعهد لابد من الوفاء به ، كما أن اليمين لابد من البر بها ، ومناط الوفاء والبر ، أن يتعلق الأمر بالحق والخير ، وإلا فلا عهد في عصيان ، ولا يمين في مآثم ، يقول رسول الله- ﷺ-: " من حلف على يمين فرأى غيرها خير منها ، فليكفر عن يمينه وليفعل الذي هوخير" فلا عقد ولا تعهد إلا بمعروف [1] .

روى " أنس بن مالك " قال : غاب عم " أنس بن النضر" عن قتال " بدر" فقال : يا رسول الله غبت عن أول قتال قاتلت المشركين !! لئن أشهدنى الله مع النبي قتال المشركين ليرين ما أصنع !! فلما كان يوم " أحد " انكشف المسلمون فقال : اللَّهم انى اعتذر إليك مما صنع هؤلاء- يعنى أصحابه - وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء - يعنى المشركين . ثم تقدم ، فاستقبله " سعد بن معاذ " فقال : يا سعد بن معاذ الجنة ورب النضر إنى لأجد ريحها من دون أحد !! قال سعد: فما استطعت يا رسول الله ما صنع ، ثم تقدم ، قال أنس: فوجدناه به بضعاً وثمانين ما بين ضربة بالسيف ، وطعنة بالرمح ، ورمية بسهم ،

1- رواه مسلم.

ووجدناه وقد مثل به المشركون ، فما عرفه إلا أخته بشامة فيه أوبنانه . قال أنس : كنا نرى أن هذه الآيه نزلت فيه وفى أشباهه . ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [سورة الأحزاب:٢٣].

ويقول الإمام " الغزالي " ولا أعنى به صاحب " الإحياء " ولكنى أعنى به إمام العصر الحديث المغفور له- بإذن الله تعالى - الشيخ " محمد الغزالي " والوفاء بالعهد يحتاج إلى عنصرين ، وإذا اكتملا في النفس سهل عليها أن تنجز ما التزمت به ، فان الله أخذ على " آدم " أبى البشر ، عهداً مؤكداً ألاّ يقرب الشجرة المحرمة لكن " آدم " ما لبث أن نسى وضعف ، ثم نكث في عهده ، قال تعالى:-﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾ [سورة طه:١١٥] فضعف الإرادة وضعف العزيمة عائقان كثيفان عن الوفاء بالواجب ، والإنسان . تتجدد الحوادث أمامه ، وترادف الهموم المختلفة عليه- يفعل الزمان فعله العجيب في نفسه فتخبو المعالم الواضحة ، ويمسى ما كان بارزاً في نفسه لا يكاد يبين ، والذكر المضطرد اليقظ ضرورة لازمة للوفاء ، فمن أين لناسي العهد أن يفي به ؟ لذلك ختمت أيه العهد بعنصر التذكير ، وهوقول الله تعالى: ﴿... وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ [سورة الأنعام:١٥٢]وأقدار الرجال تتفاوت تفاوتاً شاسعاً في هذا المضمار ، وإن ثمن الوفاء قد يكون فادحاً ، قد يكلف المال ، أو الحياة ، أو الأحبة ، بيد أن هذه هي تكاليف المجد المنشود في الدنيا والآخرة ، يقول الشاعر :

لولا المشقة ساد الناس كلهم ... الجود يفقر والإقدام قتال

والعهود التي يرتبط بها المسلم درجات ، فأعلاها مكانةً ، وأقدسها زِمَاماً العهد الأعظم الذي يكون بين العبد وربه ، فإن الله خلق الإنسان بقدرته ، وربّاه بنعمته ، وطلب منه أن يعرف هذه الحقيقة ، وإن يعترف بها ، وإلا تشرد به الغواية فيجهلها ويجحدها .

﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ [سورة الروم:٦٠:٦١].

وإذا كان هناك من البشر من لم يستمع إلى المرسلين ، ويشهد بما جاءوا به ، فإن له من فطرته سائقاً يحدوه إلى ربه ، ويبصره بخالقه ، مهما حفلت البيئة بصنوف الفساد، وضروب التخريف ، وهذا هومعنى الميثاق الذي أخذه الله على الناس كافةً ، يقول الحق- سبحانه وتعالى- في محكم كتابه الكريم: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا

غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾[سورة الأعراف:١٧٢:١٧٤].

والوفاء بالعهد أساس كرامة الإنسان في الدنيا، وسعادته في الآخرة ، قال تعالى ﴿...ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّـٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴾ [سورة البقرة:٤٠].

قص"عوف بن مالك "- رضي الله عنه - قال : كنا عند النبي -ﷺ- تسعة أوثمانية أوسبعة فقال- عليه الصلاة والسلام- ألا تبايعون رسول الله ؟ فبسطنا أيدينا وقلنا : نبايعك يا رسول الله ، قال: على أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وتصلوا الصلوات الخمس وتسمعوا وتطيعوا ، وأسر كلمة خفية ، قال :ولا تسالوا الناس شيئا ، قال عوف بن مالك - رضي الله عنه -" فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط صوط أحدهم فما يسأل أحداً أن يناوله إياه "[1] فانظر إلى الوفاء بالبيعة ، ودقة تنفيذها ، وليس هذا إلاَّ نصحاً لكل طائفة بما تعتبر أجوح إليه ، فالحاكم يُنْصَح ألاّ يظلم ، والتاجر ينصح بألاّ يغش، والموظف ينصح بالا يرتشي وهكذا ، وإلاَّ فكل مسلم مكلف بالدين كله ، وقد ظهرت في بلاد الإسلام فرق تُعْطى عهوداً خاصة لا ينبغي الاكترَث بها فهؤلاء كأدعياء الطب ، الذين يصفون الأدوية المزورة فلا تزيد المرضى إلاّ مرضاً وتعاليم الإسلام كُلٌ لا يتجزأ ، والعمل بها واجب محكم في كل زمان ومكان ، والعهد الذي قطعه الأنصار - رضي الله عنهم - على أنفسهم يعد من ألمع المواثيق والعهود في تاريخ العقائد ، وأدلها على التجرد لله، والفناء في سبيل الحق .

وقد تم في ليلة رائعة في موسم الحج وعاد الناس بعدها يعالجون شئونهم المتباينة بيد أن تبعات هذا العهد لزمت أصحابه فقبلوها رغبة لا رهبة ، وعن سماحة وطواعية ، وقدموا دماءهم الذكية سهلة في غزوة " بدر الكبرى " .

وكان النبي- ﷺ- في الأزمات العضود يعتمد على هذا الموثق لنصرة الدين ، وإعلاء كلمة الله ، فلما انكشف المسلمون في الجولة الأولى من معركة " حنين " ، أهمل رسول الله – ﷺ- الجموع الكثيرة التي دخلت - بعد - في الإسلام ، وصاح بالأوفياء الذين بايعوه في العقبة لإنقاذ الموقف . قص " انس "- رضي الله عنه- قال : لما كان يوم حنين أقبلت ، هوازن ، وغطفان ، وغيرهم بذراريهم ، ونعمهم ومع رسول الله- ﷺ- يومئذ عشرة آلاف ، ومعه الطلقاء فأدبروا عنه حتى بقى وحده ، فنادي يومئذ نداءين ، لم يخلط

1 - رواه مسلم.

بينهما شيئاً ، التفت عن يمينه فقال : يا معشر الأنصار ، فقالوا : لبيك يا رسول الله ، نحن معك أبشر ، ثم التفت عن يسار، فقال : يا معشر الأنصار ، فقالوا : لبيك يا رسول الله ، ابشر نحن معك ..... وهو على بغلة بيضاء فنزل فقال: أنا عبد الله ورسوله، فانهزم المشركون وأصاب غنائم كثيرة فقسمها بين المهاجرين والطلقاء، ولم يعط الأنصار منها شيئاً فقالوا: إذا كانت الشدة فنحن ندعى ويعطى الغنائم غيرنا ؟ فبلغه ذلك فجمعهم وقال : يا معشر الأنصار ما شئ بلغني عنكم ؟

فسكتوا ، فقال : يا معشر الأنصار أما ترضون أن يذهب الناس بالدنيا وتذهبون بمحمد- ﷺ - تحوزنه إلى بيوتكم ؟ قالوا: بلى يا رسول الله رضينا، فقال رسول الله- ﷺ - لو سلك الناس واديا،وسلك الأنصار شعبا، لسلكت شعب الأنصار"(١) .

ومن الوفاء المحمود أن يذكر الرجل ماضيه الذاهب لينتفع به في حاضره ومستقبله فإن كان معسراً فأغناه الله ، أو مريضاً فشفاه الله ، فليس يسوغ له أن يفصل بين أمسه ويومه بسور غليظ ، ثم يزعم أنه ما كان قط فقيراً ، ولا مريضاً ويبنى على غرور بحاضره مسلكا ، كله فظاظة وجحود ، وضد أى نوع من الغدر ينتهي بصاحبه إلى النفاق وربما انطرد به من رحمة الله فلم تتسع بعدئذ له .

روى أن رجلاً من أهل المدينة يُدْعى " ثعلبة " أتى مجلساً من مجالس الأنصار فأشهدهم " لئن آتاني الله من فضله آتيت منه كل ذي حق حقه وتصدقت منه ووصلت القرابة ، فمات ابن عم له ، فورث منه مالاً ، فلم يف بشئ مما عاهد عليه ، فنزل قول الله: ﴿ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ﴾[سورة التوبه:٧٥:٧٨].

ومن القصص الدالة على شؤم الغدر وعقوق النعمة ، ما رواه " أبوهريرة "- رضي الله عنه -عن رسول الله - ﷺ - قال : " أن ثلاثة من بني إسرائيل أبرص ، واقرع ، وأعمى ، أراد الله أن يبتليهم فبعث إليهم ملكاً فأتى الأبرص فقال : أى شئ أحب إليك ؟ قال : لون حسن وجلد حسن ، ويذهب عنى الذي قذرنى الناس، فمسحه فذهب عنه قذره وأعطى لوناً وجلداً حسناً فقال : أى المال أحب إليك ؟ قال : الإبل فأعطاه ناقة عشراء

1 - رواه البخاري .

وقال: بارك الله لك فيها ، ثم أتى الأقرع فقال : اى شئ أحب إليك ؟ قال : شعر حسن ويذهب عنى هذا الذي قذرنى الناس ، فمسحه فذهب عنه وأعطى شعرا حسنا قال: فأى المال أحب إليك ؟ قال : البقر ، فأعطى بقرةً حاملا وقال : بارك الله لك فيها ، ثم أتى الأعمى فقال : أى شئ أحب إليك ؟ قال: أن يرد الله على بصري فمسحه فرد الله عليه بصره ، قال : فأى المال أحب إليك ؟ قال الغنم ، فأعطى شاة وَلّادَةً ، فأنتج هذان، وولد هذا فكان لهذا واد من الإبل ، ولهذا واد من البقر ، ولهذا واد من الغنم ، ثم انه أتى - أى الملك - الأبرص في صورته وهيئته فقال : رجل مسكين قد انقطعت بى الحبال في سفري ، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن بعيراً أتبلغ به سفري ، فقال " الحقوق كثيرة فقال : كأني أعرفك ؟

ألم تكن أبرص يقذرك الناس ، فقيراً فأعطاك الله ؟ قال : إنما ورثت هذا المال كابراً عن كابر قال : إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت ، وأتى الأقرع في صورته ، فقال له مثل ذلك، ورد عليه مثل ما رد الأول فقال : إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت ، ثم أتى الأعمى في صورته وهيئته فقال له مثل ما قال فقال : قد كنت أعمى فرد الله على بصري فخذ ما شئت ودع ما شئت ، فوالله لا أجهدك اليوم لشئ أخذته لله ، فقال : امسك مالك ، فإنما ابتليتم فقد رضي عنك وسخط على صاحبيك " (١) .

والإسلام يوصى باحترام العقود ، والتي تسجل فيها الالتزامات وغيرها قال- ﷺ - "المسلمون عند شروطهم " (٢).

ومما لا ريب فيه أن الثقة في ميدان التجارة وجميع المعاملات الاقتصادية أساسها الوفاء بالعهد ، بيد أنه من الواجب أن تكون الشروط متفقة مع الشريعة الإسلامية وإلا جاءت مخالفة للشريعة الإسلامية ، فلا يجب على المسلم أن يلتزم بها .

وقد منح الإسلام عقد الزواج مزيداً من الرعاية فقال رسول الله -ﷺ-:- " أن أحق ما وفيتم به من الشروط ما استحللتم به الفروج " .

ومن ثم فليس يجوز لرجل دخل بامرأة أن يغتال درهماً من حقها ، وفى الحديث "أيما رجل تزوج امرأة على ما قل من المهر ، أوكثر ليس في نفسه أن يؤدى إليها حقها ، خدعها ، فمات ولم يؤد إليها حقها لقي الله يوم القيامة وهو زان وأيما رجل استدان دينا

1- رواه البخاري .
2- رواه البخاري .

لا يريد أن يؤدى إلى صاحبه حقه ، خدعه حتى اخذ ماله فمات ولم يؤدى إليه دَيْنَهُ ، لقي الله وهو سارق "[1].

وقد تتابعت آيات القرآن الكريم تحض على الوفاء ، وتنهى عن الغدر والخيانة ، فقال تعالى:- ﴿... وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴿٣٤﴾﴾ [سورة الأسراء:٣٤] . وقال تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾﴾[سورة النحل:٩١:٩٢]وقد بين الله- سبحانه -أن الخيانة والغدر ينزعان الثقة ، ويثيران الفوضى في المجتمع المسلم ، ويمزق ما بين المسلمين من وشائج وأمشاج.

قال تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [سورة النحل:٩٢] .

فقد يحل الرجل عقداً أبرمه لِيَحْظَ بربح أوفر ، وقد تتعاقد الأمة مع أمة أخرى ، أو دولة مع دولة اخرى ، او امارة مع إمارة أخرى لمصلحة انفع لديها بيد أن الدين يكره ان تداس الفضائل فى سوق المنفعة العاجلة ، كما يكره الاسلام أن تنطوى النفوس على النيات المغشوشة ، ويوجب الشرف على الفرد والجماعة حتى تُصان العقود على الفقر والغنى ، والنصر والهزيمة ، يقول الله سبحانه : ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾ [سورة النحل:٩٤:٩٥] .

والوفاء بالحق والعهد واجب على المسلم والكافر ، حيث ان الفضيلة لا تتجزأ ، فليس من الإسلام ، أو الوفاء بالعهد أن يكون المرء كريماً مع قوم خبيساً ونذلاً مع آخرين حيث المدار على الوفاء بالعهد ، فما دام العهد موافقا للشريعة الاسلامية لا يصح نقضه ، ولا خيانته ، بل يجب الوفاء به ، وفى الوفاء به مرضاة لله ورسوله سواءً أكان مع مسلم أو كافر ، وقد قال رسول الله- ﷺ - في " حلف الفضول " وهوحلف تم فى الجاهلية ، لودعيت به فى الاسلام لاجبت .

وعن عمرو بن الحمق- رضي الله عنه - قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : "أيما رجل آمن رجل على دمه ، ثم قتله فأنا من القاتل بريئ ، وان كان المقتول كافراً "[2].

1- رواه الطبراني .
2- رواه ابن ماجه .

هذا البيان الحاسم ، والتبيان الصارم ، والتوجيه الراشد يميط اللثام عن روح الإسلام فى معاملة الذين لم يعتنقوه ، فبينما ترى اليهود ينكرون على غيرهم حق الوفاء ، ويبخلون عليهم بنبل المعاملة ، ويحسبون أنهم وحدهم " أبناء الله وأحباؤه " وأن الله جعل رحمته ، وأمانه لشعب اسرائيل فحسب ترى الاسلام يدفع بحمية بالغة عمن منحهم ذمته ، وأدخلهم فى عقده ، ويتحدث عن الكافرين الى المسلمين حديثاً له مغزاه ،وهدفه ومرماه ، فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَلَا ٱلۡهَدۡيَ وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّهِمۡ وَرِضۡوَٰنٗاۚ وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ فَٱصۡطَادُواْۚ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ أَن صَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ أَن تَعۡتَدُواْۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢﴾ ﴾ [سورة المائدة:٢].

فانظر كيف كان تصوير الآيه الكريمة لنظر الكفار ، وتماشت مع مزعمهم وهم وثنيون فعدتهم طلاب فضل من الله ورضوان وطلبت من المسلمين مهما بلغت قوتهم أن يتعاونوا على البر والتقوى ، لا على الإثم والعدوان . ومن الشئون والتعاليم التى اهتم بها الإسلام ، ونوه بقيمة الوفاء فيها " الديون " فإن سداد الديون من الحقوق المؤكدة لدى الله . سبحانه . كما نهى عن المطل ، وتأخير السداد وكان أول ما شرعه الاسلام حرمة الاستدانة إلاَّ لحاجة قاهرة ، فمن الحرام أن يقترض المرء فى أمور يمكن الاستغناء عنها ، بل عُدَّ ذلك من الآثام التى يلحقها القصاص .

عن عبد الله بن عمر- رضي الله عنهما - قال : قال رسول الله- ﷺ - " إن الدين يقضى من صاحبه يوم القيامة اذا مات ، إلاَّ من يدين في ثلاث خلال: الرجل تضعف قوته في سبيل الله فيستدين يتقوى به لعدو الله وعدوه ، ورجل يموت عنده مسلم لا يجد ما يكفنه ويواريه الا بدين ، ورجل خاف على نفسه العزبة فينكح حسبه على دينه " [1] .

وفي رواية أخرى ان رسول الله- ﷺ - قال : " يدعو الله بصاحب الدَّيْنَّ يوم القيامة ، حتى يوقف بين يديه ، فيقال : يابن آدم فيم أخذت هذا الدين ؟ وفيم ضيعت حقوق الناس ؟ فيقول : يارب انك تعلم انى أخذته فلم آكل ، ولم أ شرب ، ولم البس ولم أضيع ، ولكن أتى عَلَيَّ اما حرق ، وإما سرق ، وإما ضيعة . فيقول الله : صدق عبدى انا احق من قضى عنك . فيدعو الله بشئ فيضعه فى كفة ميزانه فيرجح حسناته على سيئاته فيدخل الجنة بفضل رحمته " [2] .

---

1 - رواه ابن ماجة .
2 - رواه أحمد وضيعة .

ويتضح لنا من هذا الحديث ان الله -عز وجل- يعذر من يضطر إلى الدين لازمة شديدة ، والذى يعجز عن القضاء لمصائب جائحة ، أما الذى يقترض دون اضطرار كما أومأنا الى ذلك آنفا ، أوجائحة ومصيبة شديدة تلم به فهوسارق جرئ .

ويقول رسول الله -ﷺ-:" من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه ، ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله " (١).

والإسلام بهذه التعاليم يريد أن يوفر للديون الضمانات اللآزمة حتى لا يتلاعب الناس أو يستغلوا أموال غيرهم .

وليتأكد المسلم من أن الوفاء بالديون أمر لا ريب فيه ، وان أداء الحقوق لأصحابها وسداد الدين أمر لا مفر منه فهومن الأمور المقررة في الإسلام ، وهذا عين الحق والعدل ، والسلوك الحضارى الذى يدل على رقى الأمة وتحضرها وتمدنها وتمسكها باخلاق القرآن الكريم .

يقول شوقى:

إنما الأمم الاخلاق ما بقيت فان هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وعن أبى قتادة -رضي الله عنه - قال رجل : يا رسول الله ، أرايت ان قتلت في سبيل الله أتُكَفِر عنى خطاياى؟قال رسول الله -ﷺ-: نعم ، إن قُتِلتّ وانت صابر محتسب ، مقبل غير مدبر ثم قال : كيف قلت ؟فأعاد . قال : نعم إلاَّ الدين ، فان جبريل أخبرنى بذلك "(٢) .

وفي رواية أخرى : " يغفر للشهيد كل ذنب إلا الدين " (٣) .

وعن أبى الدرداء - رضي الله عنه -" إنه كان يقف حين ينتهى الى الدرب فى ممر الناس الى الجهاد ، فينادى نداءً يسمع الناس : ياأيها الناس من كان عليه دين بظنى انه أُصيب فى وجهه هذا لم يدع له وفاء فليرجع ولا يتبعنى ، فإنه لا يعود كفافاً " هذا ولقد استهان المسلمون بالقروض ، والديون ، فاقترضوها لارضاء غرائزهم ، وتحقيق مطامعهم ، والجرى وراء شهواتهم وملذاتهم وغواياتهم ، واقترضوا الأموال الطائلة من اليهود والنصارى بالربا الذى أحله بعض العلماء ناسين الوقوف بين يدى الله – سبحانه- فارضوا الحكام بسخط الله ، وكان واجباً أن يرضوا ربهم بسخط حاكمهم ، وهومحرم تحريماً بائنا ،

1 - رواه البخارى .
2 - رواه مسلم .
3 - رواه مسلم .

وجازما قاطعا ، فماذا يقول هؤلاء العلماء الذين حللوا الربا ، وارخوا العنان للناس فى أكله ، وألقوا الحبل على الغارب ناسين أومتناسين لقاء الله -عزوجل- ماذا يقولون لله حين يلقونه وهم وقوف في عرصات القيامة ، والحكم هوالله ، والخصم لهم رسول الله .

يا من تمتع بالدنيا وزينتها ... ولا تنام عن اللذات عيناه

أفنيت عمرك فيما ليس تدركه ... تقول لله ماذا حين تلقاه

وكان من آثار الاقتراض من اليهود والنصارى بالربا المحرم أن هزموا ونكبوا نكبات جائحة فى ديارهم وأموالهم ، وهزموا هزائم منكرة فى جميع الميادين السياسية ، والاقتصادية ، وغيرها وما ذلك إلاَّ لأنهم تواكلوا ، واستندوا الى عدوهم ، وعدو دينهم الذى يريد أن يستاصل شاقتهم ، ويقضى على خضرائهم ، ولولا سياط القانون لضاعت حقوق الناس .

أن الله – عزوجل – يحب الأوفياء من عباده ، وما أهلك القرى الظالمة إلاَّ بعد أن قيل في أهلها ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ﴾ [سورة الأعراف :١٠٢] .

ذنيكم الإسلام بتعاليمه الراقية ، وأخلاقه العظيمة ، التى تحفظ حقوق الناس مسلمين وغير مسلمين ، وهذه هى الأخلاق فى القرآن الكريم . (١)

1 - تفسير ابن كثير الدمشقى ج٢ ص ٢، ٣ وما بعدهما ،
- فى ظلال القرآن الامام الشهيد سيد قطب ج١ ص ٣١٦ .
- تفسير الطبرى .
- تفسير القرطبى .
- روح المعانى .
- تفسير المراغى .
- التفسير الكبير ـ مفاتيح الغيب .
- تفسير النسفى .
- الكشاف للزمخشرى .
- لطائف الاشارات للامام القشيرى .
- خلق المسلم للمغفور له ـ باذن الله تعالى ـ الشيخ محمد الغزالى ص٤٩ وما بعدها بتصرف.
- صحيح مسلم .
- صحيح البخارى .
- سند ابن ماجة .